إسهامات ابن المقفع في الفكر السياسي الإسلامي

من إعداد الأستاذ الدكتور:
معتوق جمال
أستاذ التعليم العالي
جامعة سعد دحلب البليدة

تمهيد:

تعد إسهامات العلماء المسلمين والعرب في ميادين العلوم الاجتماعية والإنسانية من أثمر وأرقى الإسهامات رغم ثقافة الإقصاء والطمس والتهميش التي عاشها ولا يزال هؤلاء العلماء والمفكرين المبدعين في شتى مجالات الفكر الإنساني.

ويّعد ابن المقفع أحد عمالقة هذا الفكر ومحطة من محطاته الواجب الوقوف عندها والتبصر في عمق طروحاتها.

وفي هذا العمل نسعى إلى إعطاء فكرة ولو وجيزة عن إسهامات هذا المفكر في ميدان الفكر السياسي.

1-التعريف بابن المقفع:

هو رُوزَّبِيهْ بن دَّاذويه، ولد في قرية " جور "(يطلق عليها اليوم اسم: فيروز آباد) الفارسية عام 106 هـ (759 م) نشأ على مجوسية أبيه، وتشرب منه الفارسية، ويبدُو أنَّهُ ألمَّ منذ صغره بمختلف جوانبها وأدرك عناصرها وأبعادها الاجتماعية والسياسية، حَلَّ في أوَّل شبابه بالبُصرة، فأطَلَّ على محيط العربية الزاخر، فنهَلَ من علومهَا ومعارفهَا، ومازجَا عناصر من ثقافته الفارسية بالثقافة العربية فكان هذا الطابع العربي الخاص الذي يسمُ كتاباته إن من حيث المضمون أو الأسلوب.(عبد الله ابن المقفع، 2001، ص 07)

تولَّى الكتابة في أواخر العهد الأموي لآل هُبَيْرة، إحدى العائلات الحاكمة، وضع نفسَهُ، زمن العباسيين، في خدمة والي الأهواز عيسَى بنُ علي، عَمَّ الخليفة أبي جعفر المنصور متفرغاً للكتابة لهُ.

2- إسلامه:

أسلمَ ابن المَقَّفع على يدِ عيسىَ بن علي، عمَّ السفاح والمنصور الخليفتين الأولين من خلفاء بني العباس، فسَمَّى نفسَهُ عبد الله بن المقفع. وقد حَكَى الهيثم بن عَديّ قالَ: جاء ابن المقفَع إلى عيسىَ بن عليٍّ فقال له: " قد دَخَلَ الإسلام في قلبي، وأريدُ أن أسلم بين يدَكَ، فقال لهُ عيسىَ: ليكن ذلك بمحضِر من القوادِ ووجوهِ الناسِ فإذا كان الغدُ فاحضر، ثمَّ حَضَر طعام عيسىَ عشية ذلك اليوم، فجلسَ ابن المَقَّفع يأكُلُ ويُزَمْزِمُ عَلىَ عادةِ

الماجوس، فقال لَهُ عيسىَ: أتُزَمزِمُ وأَنتَ علىَ عزمِ الإسلام؟ فقال: أَكْرَهُ أنْ أبيتَ عَلىَ غَير دينٍ. فلمَّا أصبحَ أسْلَمَ على يدهِ".(ابن خلكان، بدون ت، ص 105)

ثمَّ كتبَ لَهُ واختصَ به، بعد أن كتبَ لداودَ بن هُبيرة، ثمَّ لسليمان بن عَلي أيامَ ولايته عَلىَ البصرة، وذَكَرَ الزركالي فقال: أنَّهُ وُلِيَ كتابه الديوان للمنصور العباسي.(الزركالي، دون ت، ص 92)

3- أسرته ووالده:

لم يعرف من أسرته غير والدِهِ، وهو المقَفَّع بضمِ الميمِ وفتح القَاف وتشديد الفاء وفتحِهَا وبعدهَا عين مهملة، واسمهُ داذويه.

كان الحجاج بن يوسف الثقافي في أيام ولايته العراق وبلاد فارس، قد ولاَّهُ خراج فارس، فَمَدَّ يدَهُ وأخَذَ الأموال، فَعَذَبَهُ فَتَقَفَّعَتْ يَدَهُ، فقيلَ لَهُ المقَفَّع.

وقيْلَ: المقَفِّع – بكسر الفاء – لأن أبَاهُ كان يعمل القفَاع ويبيعُها.(ابن كثير، ص 96)

إلا أن القول الأول هو الأرجح.

4- نشأته وصفاته:

نشأ ابن المقَفَّع في ولاء بني الأهتم، وهم أهل فصاحةَ وبلاغة فكان لهذه النشأة تأثير عظيم فيه وفيما وصل إليه من درجة رفيعة في الأدب، أدبَّ نفسَهُ فأحسن تأديبهاَ، قال الأصمعي: " قيل لابن المقَفَّع: من أدَّبكَ؟ فقال: " نفسي. إذ رأيتُ من غيري حسناً أتيتَهُ، وإن رأيتُ قبيحاً أبيته: " كما اشتهر ابن المقَفَّع بذكائه وسعة أفقه العلمي، فذَاعَ صيته وقيلَ قيه كثيراً من المدحِ والثناءِ.

ومِمَا قيلَ فيه: " إنَّهُ لم يكن من العجم أذكى منه". وعرف بحبه للصديق وبكرمِهِ وبجودِهِ ومروءته، وحَادِثَتِهِ مع عبد الحميد بن يحي كاتب الخليفة الأموي مروان بن محمد مشهورة، إذ قالَ: أَبذل لصديقك دمِكَ ومَالكَ ".(ابن المقفع، 1999، ص ص 8-9)

ونفهم من هنا أن ابن المقَفَّع يعدُ طفرة نادرة ومتميزة من حيث العلم والذكاء والأخلاق، كما أن للبيئة الأسرية التي ترعرع فيهاَ دخل في بناء هذه الشخصية المتميزة.

كما يعَدُ ابن المقَفَّع مثال حيٌّ يقتدى به في الصداقة والإخلاص، حيث أصبح اليوم الصديق أشد الأعداء للصديق، وأنقلبت موازين الثقى ومعه سلم القيم، حيث الخيانة والغدر هما العملة الأكثر حضورٍ.

كما أن للبيئة الاجتماعية التي عاش ويعيش فيها الفرد علاقة وطيدة وانعكاسات مباشرة على سلوكاته مستقبلاً، وهذا ما أكده العديد من العلماء وعلى رأسهم عبد الرحمن ابن خلدون الذي قال بأن الإنسان ابن بيئته وابن عوائده، وقد طورت هذه الآراء نظرية التنشئة الاجتماعية، ونظرية رأس المال التي نادى بها العالم بيير بورديو " Pierre Bourdieu "، والعديد من النظريات الأخرى، وهذا ما يبين بوضوح عمق انعكاسات وتأثيرات هذه البيئة في صقل فكر ومواقف هذا المفكر الفاذ، ابن المقَفَّع.

وبالنسبة للصديق والصداقة، الموضع الغالي على ابن المقَفَّع والذي كلفه حياته سنتناول هذا بأكثر تفصيل في المطلب الخاص بـ " مقتله ".

5- عصره:

عاش عبد الله بن المقَفَّع في عهد أبي جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن عليٍّ بن العبَاس (95-185 هـ / 714-801 م) وهو ثاني خلفاء بني العباس، إذ بايَعَهُ السفَاح سنة 136 هجرية عند وفاته (136 هـ / 754 م)، وبدورِهِ الخليفة المنصور أخذ البيعة لإبنه المهدي بالخلافة من بعدِهِ.

يبدأ هذا العصر بسقوط الأمويين سنة 750 ميلادية عندمَا قامت ثورة عسكرية ضد السلطة الأموية تجنَّدَ لَهَا الفرسُ تحت لواء الشيعة والعباسيين، لذلك قامت هذه الدولة في أولِ عهدِهَا عَلَى الموالي فأصبحت فارسية النفوذ والسياسة والحضارة ولم يبقى للعرب يومَهَا إلا اللغة التي دخلتْهَا أساليب إنشائية وتراكيب جديدة نظرًا لإختلاط العرقين الحضاري والدموي أي الفارسي والعربي.(د. إنعام فوال، ص 11)

هذا التلاحق بين الحضارة العربية والفارسية كان له إنعاكسات منهَا ما عاد على الأمة الإسلامية بالمنافع العديدة وخاصة التدفق الفكري والمعرفي اللذان عرفتهم البلاد الإسلامية، وهيبة الدولة الإسلامية والتأسيس لهَا من حيث التنظيم والقوة وهذا ما جعل الأعداء يعترفون بتفوقهَا وحنكة حكامِهَا.

ونذكر هنا الرسالة الحربية المنسوبة إلى الإمبراطور " ليو السادس " الحكيم (886 – 912 م) التي قال فيها: " وإنَّ العرب أمهر الشعوب الأجنبية وأبرمهَا على الإطلاق في العمليات الحربية ".(د. إنعام فوال، ص 11-12)

ومن جهة ثانية فقد ترتبت على هذا الإمتزاج (بين الحضارة العربية والفارسية) العديد من الفتن والمآسي ونسرد بعضها.

لقد عرفت هذه الفترة (أي الدولة العباسية) العديد من الفتن والإنزلاقات الخطيرة التي كادت أن تعصف بكيان الأمة الإسلامية خاصة مع ظهور الغلو والتعصب المذهبي وإنتشار الفكر الشيعي وفرقه المختلفة، بالإضافة إلى العديد من الثورات التي إنذلعت في البلاد الإسلامية وبالخصوص الإضطهاد والإنحرافات السياسية التي تميزت بها هذه الدولة.

عاش ابن المقَفَّع 25 عامًا في ظل الدولة الأموية وكان شاهداً حيًّا على تأكلها وسقوطهَا، و 16 عامًا في ظل الدولة العباسية وهي في أوجه قوتها وعطائهَا وتناقضاتِهَا.

وعليه فهو عايش الدولتين وتحمسَ لقيام الثانية كغيره من الفارسين إلا أن الموت والتنكيل كانا ينتظرنِه في هذه الأخيرة.

وليسَ من شك في أنَّ انتصارات الجيوش الإسلامية أيَامَ السفاح والمنصور والمهدي والرشيد على الفرس والبيزنطيين أعدائهم المعهودين كانت سببًا في تألق نجم هذا العصر. وكذلك الثروة حيث لعبت دورهَا إذ سَهَّلت للخلفاء سبيل الترف والبذخ اللذين اتصفوا بهِمَا، ورفعت شأن العصر في التاريخ والقصص، على أنَّ سبب عظمته

الحقيقية راجع إلى اليقظة الفكرية التي لم يَعُدْ لهَا مثيل في تاريخ الإسلام، والتي تعتبر من النهضات الهامة في تاريخ التقدم الفكري في العالم.(د. إنعام فوال، ص 12)

وكذلك تمتعت المرأة في العصر العباسي الأول بحظٍ كبير من الحرية ونفوذِهَا وظهورهَا في أوائِل هذا العصر، وهذه الحرية لم تكن مقصورة على نساء الطبقة العالية بل تعدتهَا إلى نساء العامة حيث نَظَمْنَ وناظرن الرجال في ألوان الأدب ولطالَمَا ازدهرت المجالسُ بمواهِبِهن الأدبية والموسيقية. (د. إنعام فوال، ص 12)

وتبعَ أيضاً في هذا العصر عدد كبير من المترجمين لأن المنصور أولَ من عَنَى بالعلوم من ملوك العرب، واهتمَ بالمترجمين وأوَّلُهم ابن المقَفَّع الذي ترجم له كتب المنطق، وأبو يحي بن البطريق، وقيل أنه ترجم للمنصور أهم تأليف جالينوس وابقراط، ونقل أيضاً كتاب الأربعة لبطليموس، إن صحَ ما رواهُ المسعودي فإن ترجمة كتاب اقليدس وكتاب المِجسطي وهو أعظم تأليف بطليموس في الفلك.(د. إنعام فوال، ص 13)

كما تم في فترة المنصور هذه، " تدوين العلم وتبويبه، فدوّنت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس، كما درسَ العرب علوم الفرس واليونان، وتابع هذا حركة النقل الذي إزدهر في هذه الحقبة، وترجمة وإنشاء اللغة العربية تلك اللغة التي استعملها العرب في الجاهلية أداة للشعر ثمَّ عرفها النبي محمد صلى الله عليه وسلم لغة الوحي والدين، فأصبحت لغة حيَّة قوية، دقيقة البناء سهلة المنال تطاوعُ لغة الكُتَّاب والشعراء للتعبير عن الفكر العلمي والآراء الفلسفية العليا والتي أصبحت لغة السياسة والتخاطب الأدبي في كافة أقطار العالم العربي.(د. إنعام فوال، ص 13)

في ظل هذا الجو المشحون بالصراعات والإبتكارات عاش ابن المقَفَّع، فاستطاع أن يمزج بين الحضارة العربية الإسلامية التي تبناها وحضارته الأم الفارسية، فأبدع في العديد من فنون المعرفة وكان رغم الأعداء والوشاية بمثابة " جون جاك روسو " العرب من خلال آراءه في الفكر التربوي و" نيكولا ماكيافيلي " في الفكر السياسي.

6–مقتله:

قتل سفيان والي البصرة ابن المقَفَّع بأمرٍ من الخليفة، وذلك لأن ابن المقَفَّع كان يتنوق (النوق من فعل ناقاَ وتَنَّوَقَ الرَجُلُ في ملبسه وأمورهِ تَجَوَّدَ، وهو يضربُ للذي يكون في حديثٍ ثمَّ يخلطُهُ بغيرِهِ) في شروط الأمان التي قطعهَا عمُّه عبد الله بن علي عليه بقوله: " ومتَّى غَدَر أمير المؤمنين بعمه عبد الله بن علي، فنساؤُهُ طَوَالِق، ودَوَابُهُ حُبُس وعبيدهُ أحرار، والمسلمين في حلٍّ من بيعته. "(ابن خلكان، بدون ت، ص 152)

وكذلك روى المدائني مقتلهُ فقال: " لما دخَلَ ابن المقَفَّع على سفيان قَالَ لَهُ: أتذكر ما كنتَ تقولُ في امي؟ فقالَ: أنشدكَ الله أيهَا الأمير في نفسي، فقالَ: أمي مغتلمة إن لم اقتلكَ قتلةٌ لم يقتل بهَا أحَدٌ وأَمَرَ بتنورٍ فَسُجِّرِ، ثُمَّ أمَرَ بابن المقَفَّع فقطعت أطرافه عضواً عضواً وهو يلقيهَا في التنور وهو ينظر، حتَّى أتى على جميع جسدهِ، ثمَّ أطبقَ عليه التنور. وقالَ ليسَ عليَّ في المثلة بِكَ حرج، لأنكَ زنديقٌ، وقد أفسدتَ الناسَ.(ابن خلكان، بدون ت، ص 152)

وقد تعددت الروايات حول مقتلِه والتنكيل به، فمنهم من ردهَا إلى تأليفه كتاب في الإلحاد والبعض الآخر وهم الأغلبية قد ردوهَا إلى الحادثة السابقة الذكر والتي وقعت بينه وبين أمير المؤمنين الخليفة المنصور والذي كلف ولي البصرة سفيان للتخلص منه. مع الإشارة إلى العداوة والبغضاء التي كان يكنهمَا سفيان هذا لابن المقَفَّع، والله أعلم.

وما نلاحظه هنا من خلال هذه الحادثة المؤلمة هو مدى خوف الساسة من المفكرين وكراهيتهم لهم.

دون أن ننسى ظاهرة الشعوبية التي كانت جدُّ منتشرة في تلك الفترة والصراع العربي الفارسي والذي لهُ أسبابه وسنعمل على التطرق إلى بعضها لاحقاً.

وقد رأى العديد من المهتمين بفكر ابن المقَفَّع وحادثة مقتله أنه كان عدواً للدولة الجديدة يعمل مع أعداء هذه الدولة الجديدة، أو مع الذين يطعمون بالسلطان فيهاَ كأعمام المنصور مثلا.. الذي ثار أحدهم على المنصور بعد ذلك يريد الخلافة منه..

وكان ابن المقَفَّع كاتبًا مفكرًا وصاحب دعوة اجتماعية للإصلاح، وفي دعوته هذه، ومَا كان ينشرهُ بين النَّاس من رسائل وغيرهَا ما يخالفُ سياسة الدولة الجديدة التي كانت تقومُ على هّدْرِ الحريات وإبَاحة الدماء دون ما ضابط ولا قضاء.. فلمَا طالبَ ابن المقَفَّع بإصلاح القضاء، كان كمن يريدُ تكبيل يدي الخليفة ومنعهِ من عقاب من يشاء وقتل من يشاء دون محاكمة ولا سؤال..(عبد الله ابن المقَفَّع، 2005، ص ص 10 – 11)

ولهذا لا نستبعد أن يكون من الأسباب التي قتلت هذا الكاتب كتبهِ ورسائِلِهِ ك " رسالة الصحابة "، و" كليلة ودمنة "، وغيرهِمَا لِمَا فيهَا من نقد صريح لسياسة الضغط والإرهاب والدكتاتورية وتقييد الحريات..(عبد الله ابن المقَفَّع، 2005، ص 11)

وعليه نرى بأن الخوف على السلطة – الكرسي –كان دائمًا وأبدًا حاضرًا عند هؤلاء المتحكمين في مصير الآخرين، فهم لا يسمحون بأي نقد أو ملاحظات حول كيفية إدارة شؤون الرعية.

فابن المقَفَّع لم يكن من أنصار الحكم القائم، كان عدوًا للعباسيين، يدينُ بالولاء لآلِ علي دُنهم، وكان في الوقت نفسهُ فارسي الأصل، لا يستطيع أن يتناسى كيف ظفرَ العرب بقومِهِ، ففرضوا عليهم دينهم ولغتهم وسلطانهم. وإذا كان كذلك فقد إلتمسَ العمل عند أعمام المنصور ليأمن على نفسه، وينعمَ بسلطان ونفوذ يستطيع بواسطتهِمَا أن يصل إلى ما يريد ويرجو ويأمل.. ..(عبد الله ابن المقَفَّع، 2005، ص 11)

وعليه يمكم القول أن رغم تعدد الآراء حول مقتل ابن المقَفَّع، واتهامه بالزندقة والكفر إلا أن أغلبية الآراء ترى بأنه قد ذهب ضحية للتعصب والتسلط والشعبوية التي كانت الدولة العباسية تتخبط فيها.

وليس ابن المقَفَّع الوحيد الذي تعرض لمثل هذه الممارسات اللاإنسانية بل هناك العديد والعديد من أمثاله والتاريخ العربي الإسلامي حافل بمثل هذه الممارسات.

7– أعماله:

يقول الدكتور حبيب يوسف مغنية: " لم يبق مِمَا أُثِرَ عن ابن المقَفَّع من آثارٍ جليلة إلا عدد من الكتب تتضمن مواضيع متنوعة منها: التاريخ والفلسفة والآداب والاجتماع والوجدانيات نذكر من هذه الكتب:

- الأدب الصغير.
- الأدب الكبير.
- كليلة ودمنة."(عبد الله ابن المقَفَّع، 2001، ص ص 11 – 12)

أما د.إنعام فول فنجدهُ يقول في تقديمِهِ لكتاب " الأدب الصغير " و " الأدب الكبير ": " كتب ابن المقَفَّع الأدبية كثيرة، حيث جمع فيهَا أدب الفرس إلى أدب العرب. وابن المقَفَّع من أئِمة الكتَّاب، وهو أول من عَنَى في الإسلام بترجمة كتب المنطق، حيث ترجم للخليفة العباسي المنصور كتب " أرسطا طاليس " الثلاثة في المنطق وكتاب " المدخل إلى علم المنطق " المعروف بـ" ايساغوجي " وترجم عن الفارسية كتاب " كليلة ودمنة " وهو أشهر كتبه، يرمي إلى إصلاح الأخلاص وتهذيب العقل. وقد صنف كتاب " مَزْدَكْ " وكتاب " التاج في سيرة أنوشروان "، وكتاب " جوامع كليلة ودمنة "، إلا أن الأخير عَزَاهُ عن الهند، وكتاب " خداي نامة ". وأنشأ رسائل في غاية الإبداع منهَا " الأدب الصغير "، " الأدب الكبير " و " رسالة الصحابة " و " اليتيمة " وله شعر في كتاب " الحماسة ".. (د. إنعام فوال، ص 13)

بينما نجد أحمد أمين في كتابه " ضحى الإسلام "، الجزء الأول يقول بأنه لم يبقى من أعمال ابن المقَفَّع إلا أربعة كتب وهي:

- الأدب الصغير.
- الأدب الكبير أو اليتيمة.
- رسالة الصحابة.
- كليلة ودمنة.

مع الملاحظة أن أحمد أمين وبعض الدارسين لفكر ابن المقَفَّع يقولون بأن الأدب الكبير واليتيمة هما كتاب واحد، رغم وجود العديد من الباحثين الذين يرون العكس.

والملاحظ بعد قراءة أعمال ابن المقَفَّع وتحليلها يظهر لنا أن للرجل العديد من المواهب كما أنه قد اهتم بالعديد من أصناف المعرفة، حيث لم يترك ميدان من ميادين العلوم المشهورة في وقته وإلا وكتب أو ترجم فيهَا. كما يمكن القول بأنه رائد في الفكر التربوي ويظهر هذا جليًا من خلال كتابه " الأدب الصغير " وبالخصوص في " كليلة ودمنة " ذلك العمل الذي شَمَلَ على التربية بالإضافة إلى السياسة والإصلاح.

كما يبقى كتاب " رسالة الصحابة " من أهم الكتب في السياسة وقد سبق ابن المقَفَّع في هذا المؤلف " نيقولا مكيافيلي " صاحب الكتاب المشهور " الأمير " بعدة قرون.

وعن قيمة هذا المؤلف كتب أحمد أمين قائلاً: " وللرسالة قيمة كبرى فإنهَا تقرير في نقد الحكم – إذ ذالك – ووجوه إصلاحِه، رفعه إلى أمير المؤمنين ولم يسمِهِ، والظاهر أنه أبو جعفر المنصور لأنه يذكر دولة بني العباس وقد استقرت، ويذكر امير المؤمنين، وقد أهلك الله عَدُوَهُ وشفى غليله، ومكَّنَ لَهُ في الأرض، وأتاهُ خزائِنهَا. ويذكر أبا العباس (السفاح) ويَتَرَحَمُ عليه. وإذا علمنا أنَّ ابن المقَفَّع قتِلَ في عهد المنصور، صَحَ لنَا أن نستنتج – من ذلك كُلُهُ – أن الرسالة إنَمَا كتبت للمنصور".(أحمد أمين، دون تاريخ، ص 205)

وقد اتفق أغلب النقاد والباحثين على أن هذه الرسالة هي بمثابة تقرير مفصل عن شؤون الدولة والرَعِيَة، وخاصة أن صاحبها قد قام برصد مجمل الأمراض التي كانت تنهش جسم الدولة من فساد ورشوة ومحسوبية ومظالم، وجور في القضاء وحاول أن يقدم حلول عملية لأمير المؤمنين حتى يقوم بالإصلاح اللازم.

وقد احتوت هذه الرسالة على العديد من المواضيع، إذ تطرق صاحبها حَالَ الجُندِ، ثانيا صفات وخصائص أهل العراق، ثالث فوضى القضاء، رابعاً تعطيف المنصور على أهل الشام، خامسًا تكلم في صحابة الخليفة أو ما نسميه نحن الآن " بمعيته " ورجال دولته المقربين إليه، أي البِطانة أو الخاصة، سادسًا تعرض كذلك إلى مسالة حساسة وتخص " الخرَاج " ويعني بالخرَاج المال المفروض على الأراضي والممتلكات، سابعًا، انتقل بعد ذلك إلى الكلام في جزيرة العرب من الحجاز واليمن واليمامة وغيرها وإشكالية طاعتها لأمير المؤمنين المنصور، ثامنا ختما هذه الرسالة بإظهار أثر صَلاَح الخليفة على الراعية وعواقب فساده.

يصعب في عمل كهذا أن نرجع إلى كل الأعمال التي أنجزها هذا المفكر الفاذ للإحاطة بفكره السياسي ومشروعه الإصلاحي، ولهذا فقد اكتفينا ولأسباب منهجية الاعتماد على كل من: " رسالة الصحابة " و " الأدب الصغير " و " الأدب الكبير " لعرض بعض هذه الأفكار السياسية والإصلاحية.

كما قسمنا هذا العمل إلى جملة من النقاط حسب تموقعها في سياق المشروع الذي جاء به عبد الله ابن المقَفَّع.

أولاً– في مسألة الجند:

يعدُ التطرق إلى قضية الجند في بداية هذه الرسالة إلى الأهمية القصوى التي تحتلها هذه الأخيرة في نسيج الدول، إذ تعد الدولة العباسية دولة فاتية في مرحلة تدوين هذه " الرسالة " من طرف عبد الله ابن المقَفَّع. ولمِا كان الجند هو عصب الدولة وحاميها من الأعداء والمتربصين بها من الخارج والداخل، فنجد ابن المقَفَّع قد أعطى للجند المكانة المحورية في كتابه هذا وبدأ بها في تحليله للدولة ومقوماتها، حيث جاء في " الرسالة ": فمن الأمور التي يذكر بهَا أمير المؤمنين أمتعَ اللهُ بهِ، أمر هذا الجند من أهل خرسان فإنهم جند لم يدرك مثلهم في الإسلام وفيهم منعة بهًا يتم فضلهم إن شاء الله، أما هم فأهل بصر بالطاعة وفضل عند الناس وعفاف نفوس وفروجٍ وكفٍّ عن الفساد وذلَ للولاة فهذه حَالٌ لا نعلمُهَا توجدُ عند أحد غيرهم".(عبد الله ابن المقَفَّع، بدون سنة، ص 311)

ونلاحظ من خلال هذا الكلام أن ابن المقَفَّع يعطي أهمية قصوى للجند ولكن ليسَ لأي جند، بل جندٍ يتميزُ بموصفَات هي الطاعة والعفاف والكف عن الفساد، ولهذا نجدهُ يمجِدُ خرسان لَمَا كانوا يتصفون بهذه الأوصاف.

ثمَّ يواصل كلامه عن الجند فيقول: " وأما ما يحتاجون فيه إلى التأديب من ذَلك تقويم أيدهم ورأيهم وكلامهم فإن في ذلك القوم أخلاطًا من رأسٍ مفرط وتابع متحير شاك، ومَنْ كَانَ إنمَا يصولُ على الناس بقومٍ لا يعرف منهم الموافقة في الرأي والقول والسيرة.. فهو كراكب الأسد الذي يوجل من رآهُ والراكبُ أشد وجَلاً ".(عبد الله ابن المقَفَّع، بدون سنة، ص 311)

ويضيف قائلا: " فلو أن أمير المؤمنين كتب لهم أمانًا معروفًا بليغًا وجيزًا محيطًا بكل شيء يجبُ أن يعملوا فيه أو يكفوا عنه بالغًا في الحجة قاصرًا عن الغلو يحفظُه رُؤَسائهم حتَّى يقودوا به دهماءهم ويتعهدوا به منهم من لا يؤبَهُ لَهُ من عرضِ الناس لكان ذلك إن شاء الله لرأيهم صلاحًا وَعَلَى من سواهم حجة وعند اللهِ عذرًا".(عبد الله ابن المقَفَّع، بدون سنة، ص 311)

ويعلق أحمد أمين في ضحى الإسلام على هذه الأفكار قائلاً: " ثمَّ شك – هنا ابن المقَفَّع – أمور: أولهَا أنه لابُدَ أن تنظمُ أفكارهم، ولابُدَ لذلك من أن يكونَ لهم دستور أو قانون، يحيطُ بكل شيء يجبُ أن يعرفوهُ، يبينُ لهم ما يفعلونَّهُ وما يجتنبونَهُ، يحفظُه رؤساؤهم، ويقودون به عامَّتهم ...".(أحمد أمين، دون تاريخ، ص 206)

هنا نلاحظ مدى تفطن ابن المقَفَّع لحساسية بناء الجند، كقوة مانعة، مقوماتهَا الطاعة والإمتثال ومتشبعة بالقوانين ومهيكلة حسب متطلبات الزمن.

كما يعد هذا الفكر رائدًا في المجال الحربي – العسكري – وخاصة في مجال ما يسمى اليوم بعلم اجتماع العسكري.

مع الإشارة كذلك إلى أن ابن المقَفَّع ضد الفوضى والعفوية، بل مع التنظيم العقلي للجند وكذا لكل صغيرة وكبيرة، حتَّى يَسُدَ الباب في وجه الإنزلاقات التي يمكن أن يقع فيها الجند، كما أنه – ابن المقَفَّع – يركز على قادة الجند ويرى من الضروري أن يكونوا أصحاب كفاءة وحنكة ومتشبعين بالفنون العسكرية وقوانينها، وهذا حتَّى يكونوا بمثابة المثل الأعلى بالنسبة للجند، الذين هم تحت أوامرهم.

ثمَّ نجد ابن المقَفَّع ينتقل إلى مسألة في غاية الأهمية، وهي مسألة الطاعة والغلو، حيث يقول: " فإن كثيرًا من المتكلمين من قواد أمير المؤمنين اليوم إنما عامة كلامهم فيمَا يأمر الآمرَ ورغمَ الراغمَ وأن أمير المؤمنين لو أمر الجبال أن تسير سَارَت ولَو أمَرَ أن تستدبر القبلة بالصلاة فعل ذلك، وهذا كلام قلما يرتضيه. ومن كان مخالفًا، وقلمًا يردَ في سمعِ السامع إلا أحدث في قلبه ريبة وشكًا، والذي يقولُ أهل القصدِ من المسلمين هو أقوى للأمر وأعزُ للسلطان وأقمَعُ للمخالف، وأرضى للمواقف وأثبتُ للعذرِ عند الله عزَ وجل."(عبد الله ابن المقَفَّع، بدون سنة، ص 311)

المباغة في طاعة والي الأمر ظاهرة متجذرة عندنا نحن العرب والمسلمين وقد كلفت ولا تزال هذه الظاهرة الكثير والكثير شعوبنا.

بل أعطينا – نحن الشعوب، مسؤولينا أكثر ما أعطاهم الله من حقوق واجب الإمتثال لها، وجعلَ منهم المنقذين بل، وضعنا مصيرنا في أيدهم ...

وابن المقَفَّع كمصلح وشاهد حيا للدولتين هُمَا الأموية والعباسية، ومعايش لإنهيار حضارة – هي حضارة الفارسية – وقيام حضارة أقبل عليها وتشبع بها في الإسلام، نجدهُ قد عنى من الغلو في الطاعة للحكام سواء في موطنه الأصلي بلاد الفرس أو عند دخولهِ الإسلام وانضمامه للدولة الإسلامية في عهد العباسيين، ولهذا فهو ينصح أمير المؤمنين بأن يجعل حدِ لهذا الغلو وعبادة الأشخاص (Le Culte de la personnalité).

نجد أن ابن المقَفَّع قد عاد إلى القرآنية ليبين لنا من خلال هذه " الرسالة " التي خصص بها الخليفة المنصور، أن هناك حدود لا يجوز للخليفة أن يتعداهَا. وأنه لا طاعة لمخلوقٍ مهما كان وزنه أو مكانته في معصية الخالق.

ونستشهد هنا بتعليق أحمد أمين على هذا القول: حيث جاء فيه: " ... وشكَا من هذا جرَّ قومًا إلى المغالاة في الأمر بالطاعة لأمير المؤمنين، وَوُجِدَ في القوادِ من يقولُ: إن أمير المؤمنين لو أَمَرَ أن تستدبر القبلة بالصلاة لسمعنَا وأطعنا! وهذا أثر سيء في النفوس، وقد ساقه هذا القول إلى بحث أوامر أمير المؤمنين ومًا يطاعُ منهَا وما لا يُطاعُ، وذكر المبدأ المشهور: " لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق "، وقال: إن قومًا فسَروا هذا المبدأ تفسيرًا معوجًا.

والذي رآهُ ابن المقَفَّع: أن الخليفة يطاعُ فيمَا لا يطاعُ فيه غيرهُ، وبيان ذلك: أن هناك فرائض وحدودًا بيَّنَهَا اللهُ، وفي هذا لا يطاعُ أمير المؤمنين لو أمَرَ أمرًا يخالفهَا، وهناك أشياء كثيرة من شؤون الناسِ لم يأتِ فيمَا نص، بل تركت لعقل النَّاسِ واجتهادهم ...". (أحمد أمين، دون تاريخ، ص ص 206-207)

إن هذا الغلو في الطاعة لولي الأمر هو بمثابة ظاهرة اجتماعية مرضية في مجتمعاتنا العربية والإسلامية وهي ضاربة جذورهَا في أعماق التاريخ.

فاليوم على سبيل المثال نجد أن نفس الغلو مازال يسود في الأقطار العربية حيث شهدنا ما أحدثته ثورة الربيع العربي ببعض الأنظمة الفاسدة والتي شيدت هيمنتها على الاستبداد والطاعة العمياء.

فمثلاً زعيم ليبيا معمر القذافي قبل انهيار نظامه وقبْرِهِ، كان جندهُ يرغم المواطنين على القول" لا إله إلا القذافي "، ونفس الظاهرة تكررت مع النظام الديكتاتوري السوري الفاسد حيث أرغم المواطنين على ترديد شعار " لا إله إلا بشار "، فالطاعة العمياء هي سر ضمان بقاء هذه الأنظمة.

ولهذا فقد تفطن عبد الله ابن المقَفَّع لهذه المشكلة، ونادى المسؤول الأول على الأمة أن يجعل حدٍ لمثل هذا النفاق.

ثانيا: في أن يحُول أمير المؤمنين بين الجنود وبين إدارة الشؤون المالية.

يعد المال من القضايا التي شغلت بال العديد من المفكرين العرب وغير العرب، حيث نجد على سبيل المثال كل من: المقريزي، ابن خلدون وكذلك الأدلجي قد تناولوا هذه المسألة مبينين فوائدها ومخاطر على النفس. وابن المقَفَّع كغيره من المفكرين والدارين بمخاطر الأطماع وكيف يمكن للمال أن يفسد الضمائر، فلم يهمل هذه القضية وخصص لَهَا مطلبًا كاملاً.

ومِمَا جاء في هذا المطلب نجد: " ومِمَا ينظر فيه لصلاح هذا الجند ألا يولي أحدًا منهم شيئًا من الخَرَاجِ، فإن ولاية الخَرَاج مفسدة للمقاتلة، ولم يزل الناسُ يتحامون ذلك منهم وينحونه عنهم لأنهم أهل دالة ودعوى بلاء، وإذا جلبوا الدراهم والدنانير اجتروا عليهما، وإذا وقعوا في الخيانة صَارَ كُلَ أمرهم مدخولاً نصيحتهم وطاعتهم فإن حِيْلَ بينهم وبين وضعِهِ أخرجتهم الحمية مع أن ولاية الخَرَاج داعية إلى ذلةِ وعقوبة وهوان، وإنمَا منزلة المقاتل منزلة الكرامة واللطف".(عبد الله ابن المقَفَّع، بدون سنة، ص ص 313-314)

لقد استفاد كثيرًا ابن المقَفَّع مِن تجارب الماضي وخاصة كونه عايش حضارتين كما سبق القول – الفارسية المنهارة، والإسلامية القائمة- كما أنه عرف مدى الضرر الذي يلحق بالدولة المركزية عند سماح الخليفة لقواده وولاته التدبر في المال – الخَرَاج – حيث يطغى العديد منهم وينقلب على الدولة المركزية نظرًا للثروة والجند اللذان يتمتع بهما، وهذا ما حدث بالفعل سواء خلال قيام الدولة الأموية وبعدها العباسية والعثمانية ... فمعاوية ابن أبي سفيان بفضل الجند والمال الذي كان يتمتع به خارج عن السلطة المركزية وأصبح يشكل تهديدًا لها، إلى أن أسس أولى خلافة وراثية في العهد الإسلامي على حساب مبدأ الشورة.

ويواصل عبد الله ابن المقَفَّع تشريحه للمرض الذي ينهش جسم الدولة بترك الخراج في أيدي الجند والقواد وكذلك مستوى هذه الفئة الأخيرة المنحط وما يَترتب عنه من فسادٍ وأزمات، فيقول: ومِمَا ينظر فيه من أمرهم أن منهم من المجهولين من هو أفضل من بعض قادتهم، فلو إلتمسوا وصنعوا كانوا عدةٌ وقوة وكان ذلك صلاحًا لمن فوقهم من القادة ومن دونهم من العامة.

ومن ذلك تعهد أدبهم في تعلم الكتاب والتفقه في السنة والأمانة والعصمة والمباينة لأهل الهوى وأن يظهر فيهم من القصد والتواضع واجتناب زي المترفين وشكلهم مثل الذي يأخذُ به أمير المؤمنين في أمر نفسه".(عبد الله ابن المقَفَّع، بدون سنة، ص 314)

نلاحظ هنا إلى أن ابن المقَفَّع قد سبق عهدهُ إلى التطرق إلى مسألة جدُّ هامة في السياسة وإدارة الدولة وبالخصوص في علم الاجتماع وهي مسألة " الكفاءة " " La Compétence ".

حيث نجدهُ يقول بأن هناك من المرؤوسين أكثر كفاءة من رؤسائهم، إلا أنه رغم هذا فالمناصب القيادية يحتكرها من هم أقل كفاءة وحنكة وهذا لعدة أسباب منها الجهوية والعرقية، والمحاباة وغيرها من المقاييس الذاتية.

والمطلوب من أمير المؤمنين حسب ابن المقَفَّع هو أن يضع على رأس القيادات والمسؤوليات من هم أهل لها، فالمسؤولية تكليف وليسَ تشريف.

ونحن اليوم تعيش نفس المعضلة بل بصفة أعمق، وهي هيمنة الرداءة على أعلى المناصب، كما أن للعلاقات الشخصية والعشائرية والزابونية والجيهاوية وغيرها من الأمراض الاجتماعية علاقة مباشرة في انتشار هذا المرض والمتمثل في هيمنة الرداءة على أعلى المناصب.

فابن المقَفَّع قد عايش هذا وعندما تكلم عن الجند ورؤسائهم فهو لا يعني فقط هذه الفئة الاجتماعية بل يتكلم بصفة عامة على التهميش الذي تعاني منه الكفاءات وهيمنة الجهال.

كما أنه لم يكتفي بالإشارة إلى هذه المعضلة بل ذهب أبعد من هذا حينما طلب من أمير المؤمنين تنشئة الجند تنشئة سياسية وعلمية، حتَّى يتفقهوا في القضايا الخاصة بالحياة العسكرية من جهة ومن جهة أخرى بالقضايا الثقافية والعلمية المختلفة والتي يمكن دون شك أن تساعدهم في حياتهم المهنية، دون أن ينسى الإشارة إلى ما يمكن أن يسببه الترف واللهو من مصائب ومشاكل، فطلب من المنصور أن ينهى عنه جندهِ وقوادهِ.

ثالثًا: تحديد وقت إستلام دخل الجند:

يقول ابن المقَفَّع: " ولا يزال من أمير المؤمنين ويخرج منه القول ما يعرف مقته للإتراف والإسراف وأهلهما، محبته القصد والتواضع ومن أخذ بهِمَا حتَّى يعلموا أن معروف أمير المؤمنين محظور عمن يكنزهُ بخلاً أن ينفقه سرفًا في العطر واللبس والمغالاة بالنساء والمراتب، فإن أمير المؤمنين يؤثر بالمعروف من وجهة المعروف والمؤساة. ومن ذلك أمَرَ أرزاقهم أن يوقتُ لهم أمير المؤمنين فيهَا وقتًا يعرفونَهُ في كل ثلاثةِ أشهر أو أربعة أو ما بَدَا لهُ، ويعلموا الوقت الذي يأخذون فيه فينقطع الإستبطاء والشكوى".(عبد الله ابن المقَفَّع، بدون سنة، ص 314)

وحتَّى لا يترك منفّذًا يتسلل منه الفوضى والإضطرابات والإنحرافات فقد أشارها ابن المقَفَّع إلى انه من الواجب على المسؤول – هنا الأمير – أن يعين وقت دقيق للجند يقبضون فيه أرزاقهم، فعدم تعيين هذا الوقت وترك الجند تحت رحمة الحاجة والعوز يولد الكثير من المشكلات. فقد رأينا أن العديد مثلاً قد يلجأ إلى الطرق غير الشرعية لسد هذا العجز، كما أنه يمكن أن يتولد على هذا الخيانة عند الجند، فبعضهم يبيع أسرار الدولة للعدو مقابل المال، أو اللجوء إلى السرقة والإستفزاز للمواطنين للحصول على المال.

كثيرة هي المشكلات الممكن أن تنجم عن العوز وقد بينت هذا بوضوح العديد من النظريات الاجتماعية وعلى رأسها نظرية الحاجات لـ " أبراهم ماسلو Abraham Maslow " وغيره من العلماء.

وبتحديد وقت الحصول على الراتب يكون المسؤول قد سد باب الشكاوي والاضطرابات.

وبعد التعرض إلى قضية الجند عند ابن المقَفَّع ننتقل إلى مسألة أخرى في هذا العمل والمتمثلة في القضاء، وإشكالية العدل.

رابعًا: في صلاح وفساد القضاء:

قبل البدء في الكلام عن القضاء نجده يخوض في صفات أهل الأمصار وما لهم وما عليهم.

وقد جاء على لسان ابن المقَفَّع: " إن في أهل العراق يا أمير المؤمنين من الفقه والعفاف والألباب والألسنة شيئًا لا يكادُ يشكُ أنَهُ ليس في جميع من سواهم من أهل القبلة مثلهُ ولا مثل نصفِه.. فلو أرادَ أمير

المؤمنين أن يكتفي بهم في جميع ما يلتمسُ لهُ بأهل الطبقة من الناس رجونا أن يكون ذلك فيهم موجودًا، وقد أزرى بأهل العراق في تلك الطبقة، إن ولاة العراق فيمَا مضى كانوا أشرار الولاة وأن أعوانهم من أهل أمصارهم كانوا كذلك.. فحمل جميع أهل العراق إلى مَا ظهر من أولئك الفسولِ وتعلق بذلك أعداؤهم من أهل الشام فنعوهُ عليهم، ثمَّ كانت هذه الدولة فلم يتعلق من دونكم من الوزراء والعمال إلا بالأقرب فالأقرب ممَا دنَا منهم أو وجودهُ بسبيل شيء من الأمر، فوقع رجال مواقع شائنة لجميع أهل العراق حيث ما وقعوا من صحابة خلِيفة أو ولاية عمل، أو موضع أمانة أو موطن جهاد، وكان من رأي أهل الفضل أن يقصدوا حيث يلتمسوا فأبطأ ذلك بهم أن يعرفوا وينتفع بهم، وإن كان صاحب السلطان ممن لم يعرف الناس قبل أن يليهم ثمَّ لم يزل يسأل عنهم من يعرفهم، ويستثبتُ في استقصائهم زالت الأمور عن مراكزهَا ونزلت الرجال عن منازلهَا لأن الناس لا يلقونه إلا متصنعين بأحسن مَا يقدرون عليه من الصمت والكلام غير أن أهل هذا النقص هم أشدُ تصنعًا وأحلى ألسنة وأرفق تلطفًا للوزراء أو تمحلاً لأن يثنى عليهم من وراء وراء".(عبد الله ابن المقَفَّع، بدون سنة، ص ص 315-316)

يعلق على هذه الفقرة أحمد أمين قائلاً: " ثم ذكَّر أمير المؤمنين بأهل العراق عامة، وأهل البصرة والكوفة خاصة وأنهم أقرب الناس إلى أن يكونوا شيعتهُ ومعينيه، ولأهل العراق من الفقه والعفاف والألباب والألسنة ما لَيْسَ في سواهم، ورجاهُ في العناية بهم والإعتماد عليهم، وقال: إنَّه ازْرَى بأهلِ العراق، أن وُلاةَ العراق — فيما مَضَى — كانوا أشرار الولاة، وأعوانَهم كانوا أشرار الأعوان، فساءت سمعة العراق من أجل هذه الفئة الضالة، واسْتَغَلَّ اهلُ الشام ذلك، فشنَّعوا على أهل العراق عامَّة بما صنعت هذه الفئة، ولمِا جاءت دولتكم لم تجد أمامَهَا — من أهل العراق — إلا هؤلاء الظاهرين ممن لا يصحُ الإعتمَّاد عليهم، فلو نُحِّي هؤلاء وأمثالهم، واستقصى النَّاسٌ وعُرِفَ أهل الفضل، فأسندت الأمور إلى الأكفاء غير المتصنعين لظهر فضل أهل العراق".(أحمد أمين، دون تاريخ، ص 208)

لقد تفطن ابن المقَفَّع إلى مسألة الكفاءة والتي سبق الإشارة إليها: كما عالج في هذه الفقرة مسألة الوصم وما يمكن أن يلحق بصاحبه من مآسي وتهميش.

حيث رأى بأن أهل الشام قد استطاعوا بدهاء أن يستثمروا في ما قام به من ظلم وعدوان بعض الولاة وأتباعهم في العراق ليلصقوا تهمة الإنحراف والظلم في أهل العراق كلهم.

كما أنه من المطلوب أن لا يأخذ الراعي بما يقال عن فلان أو فلان بل التحري والعمل على الوصول إلى الحقيقة، وقطع دابر الوصوليين والمتسلقين الذين يصنعون أقوالهم وأفعالهم من أجل تحقيق مآربهم وأطماعهم.

وحول فوضى القضاء وغياب العدل نجدهُ يقول: " وممَّا ينظر أمير المؤمنين فيه من أمر هذين المصرين وغيرهمَا من الأمصار والنواحي اختلاف هذه الأحكام المتناقضة التي بلغ اختلافهَا أمرًا عظيمًا في الدماء والفروج والأموال، فيستحلُ الدمُ والفرجُ بالحيرةِ، وهما يحرمانِ بالكوفة ويكون مثل ذلك الإختلاف في جوف الكوفة فيستحيل في ناحية منهَا ما يحرم في ناحية أخرى، غير أنه على كثرةِ ألوانه نافذ المسلمين في دمائهم وحرمهم

يقضي به قضاة جائز أمرهم وحكمهم مع أنه ليسَ ممَا ينظر في ذلك من أهل العراق وأهل الحجاز فريق إلا قد لجَ بهم العجبُ بمًا في أيدهم والإستخفاف ممن سواهم فأقحمهم ذلك في الأمور التي يغضبُ لهًا من سمعهًا من ذوي الألباب".(عبد الله ابن المقَفَّع، بدون سنة، ص 316)

نلاحظ من خلال هذا الكلام انه عبارة عن تقرير مفصل لوضعية القضاء في البلاد الإسلامية، فهو قضاء غير موحد بل هناك جرائم يعاقب عليها في بعض الأمصار بينما العكس في أمصار أخر، كما أن المنظومة القضائية في البلاد الإسلامية تتميز بالفوضى وتضارب القوانين.

وقد أشار ابن المقَفَّع في هذا المقطع من " الرسالة " إلى أن القضاء يخضع لأهواء القضاة، وقد نتج عن هذا العديد من المظالم في حق الأهالي، زد عَلى ذلك القوانين المتناقضة في البلدة الواحدة، أين نجد من منطقة إلى منطقة قانون خاص وهذا ما ينعكس سلباً على وحدة وتماسك الدولة الإسلامية.

كما أنه تستحل دماء وفروج وأموال المسلمين في نواحي من الدولة باسم القانون وتحرم وتصانُ في منطقة أخرى.

وحسب القراءة النقدية التي قدمها احمد أمين في ضحى الإسلام، القضاة نوعان: نوع يزعمُ أنه يلتزم السُنَّةَ (يعني بذلك النص على العموم) وقد تغالى فيما سماهُ سنَّة فكثيرًا مَا يسفك دَمًا مِن غير بّينةٍ ولا حجة، ويزعمُ انه هو السنة، فإذا قيل لهُ: إن هذا الأمر لَمْ يرق فيه دمٌ في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو أئِمة الهدى من بعهد! قال: فعل ذلك عبد الملك بن مروان أو أمير من بعض أولئك الأمراء!.

ونوع ثاني يزعمُ أنه من أهل الرأي فَيَبْلُغَ به الإعتدادُ برأيه " أن يقول في الأمر الجسيم – من أمر المسلمين – قولاً لا يوافق عليه أحدًا ثمَّ لا يستوحشُ لإنفرادهِ بذلك، وإمضائهِ الحكم عليه، وهو مُقرٌ أنَّه رأي منه لا يَحْتَجُ بكتابٍ ولا سنةٍ " هذه هي الفوضى – كما شرحهَا ابن المقَفَّع – ثمَّ اقترحَ لهَا علاَجَا، وهو أن يرفع إلى أمير المؤمنين كل الأقضية والمسائل التي يحدثُ فيهَا خلاف، ويذكر مَا يُحْتجُّ به كل فريق من المخالفين من نص أو رأي، فيعمدُ أمير المؤمنين إلى هذه الحجج والبراهين، ويختارُ ما يراهُ صوابًا، ثمَّ يدونُ ذلك في كتاب، وتعمل منه نسخ ترسلُ إلى الأمصار، ويلزمُ القضاةُ بالحكم به، فإذا جدَّت حوادث سيرَ فيها هذا السير، ووجب على كل إمام يأتي بَعْدُ أن يُدْخِلْ على هذا القانون ما يجِدُّ وما تدعو إليه الحاجة، وهكذا إلى آخر الدهر".(أحمد أمين، دون تاريخ، ص 209)

خامسًا: علاقة الحاكم بالرعية:

وفي موضوع الولاية، نجده يقول: " إن إبتليت بالإمارة: فتعوذ بالعلماء، وأعلم أن من العجب أن يُبتلَى الرجل بهَا فيريد أن ينتقص من ساعات نصبه وعملهِ فيزيدها في ساعات دعنه وشهوته، وإنمَّا الرأي لَهُ والحقُ عليه أن يأخذ لعملهِ من جميع شغلهِ، فيأخذ من طعامِهِ وشرابه ونومه وحديثه ولهوهِ ونسائه ".(مقدمة مؤلف " الأدب الكبير " لابن المقَفَّع)

إن الولاية والسلطة كانت ولا تزال من أهم المشكلات في الأقطار العربية والإسلامية. حيث إنحراف الولاة وفسادهم كان دومًا حاضرًا وسبب مآسي المواطنين أو الرعية.

فالوالي بدلاً من أن يخدم الأمة نجدهُ يعمل على خدمة مصالحه الشخصية الضيقة، معتقدًا بأنه صاحب الفضل وأنه المنقذ. فيعمل على خدمة صورته وتحسينها بل تجميلهَا من خلال الدعاية المغرضة والكاذبة. متناسيًا أن الولاية بلاء ونشير كذلك أن موضوع الولاية قد احتل مكانة محورية في فكر ابن المَقَفَّع والعديد من المفكرين المسلمين وذلك لمِا عرفته ولا تزال الأمة الإسلامية من انحرافات ولاتها عبر التاريخ.

فكما يبين كل من ابن قتيبة في كتابه " الإمامة " والمسعودي في " مروج الذهب " على سبيل المثال لا الحصر قد تفنن الولاة في كل من العصر الأموي والعباسي في التنكيل بالعلماء والتصفية الجسدية للأصوات الحرة وهذا ما لقاهُ مؤلفنا ابن المَقَفَّع والكثرون ويقول ابن المَقَفَّع في " الأدب الصغير ": ولاية الناس بلاء عظيم ".(آثار ابن المَقَفَّع، تقديم وإشراف عمر أبو نصر، 1966، ص 325)

وهذا يدفع للقول أن الولاية ليست تشريف كما يعتقدهُ هؤلاء بل تكليف، وصلاح الوالي يعني صلاح وسعادة الرعية.

إن الكرسي والمناصب والجري وراء المسؤوليات والتسلط اليوم من الظواهر الأكثر إنتشار، حيث الكل يحي ويموت من أجل الفوز بالكرسي والوصول إلى هرم السلطة.

فكم من مسؤول أو والي لا يمتلك لأدنى شروط الولاية أو المنصب، إلا أنك تجدهُ لا يخجل من هذا الضعف والنقص، بل يجعله حافزا للوصول إلى سدة الحكم.

فالتاريخ الإسلامي مليء بهذا النوع من الولاة والمسؤولين الذين كانوا مسؤولين بالاسم، وعملوا على تعويض هذا الضعف بالتسلط والقهر من أجل ضمان بقائهم في سدة المناصب.

إن ظاهرة عشق المنصب والموت من أجل المسؤولية ليسَ بالأمر الحديث العهد أو الدخيل على مجتمعاتنا، بل هو ظاهرة عرفتها مجتمعاتنا العربية والإسلامية منذ القديم البعيد.

فكم من مسؤول قد تطفل وخطف منصب وهو ليسَ اهل له، وهذا ما أراد الإشارة إليه كذلك ابن المَقَفَّع عندما ما خاطب الخليفة المنصور مستعملاً أسلوب الوعظ تارة وأسلوب التحليل والنقد للوضع المزري الذي كانت تعيشه الأمة الإسلامية من مظالم وفساد سياسي.

فالمسؤولية ليست تجميل لصورة المسؤول بل هي محاسبة وتضحية على حساب الذات من أجل خدمة الآخرين.

إلا أننا نلاحظ العكس وفي أوطاننا حيث مباشرة بعدما يتولى المسؤوليات والمناصب إلا ويتحولون إلى متسلطين لا يهمهم إلا مصالحهم دون التفكير في من هم تحت سلطتهم.

وفيما يخص طالب المسؤولية نجد ابن المقَفَّع يقول: " أن يهدف في ذلك إلى رضى ربه بخدمة الصالح العام، بكفاءة وصدق، من دون رياء، مع رغبة عن ثناء الناس، وعدم التفات لقدحٍ أو مدحٍ ".(د. عمر بن قينة، 2000، ص 19)

وفي هذا الموضوع يقول ابن المقَفَّع: " إياك إذا كنت واليًا أن يكون من شأنك حبَّ المدحِ والتزكية ".(آثار ابن المقَفَّع، تقديم وإشراف عمر أبو نصر، 1966، ص 282)

كما أننا نوافق تماما د. عمر بن قينة عندما يقول: " فمن يقبل المدح أو ينشدهُ كمن يمدح نفسه، وهو ما يعتبر ثلمة يتسلل منهَا (الإنتهازيون) و(الوصوليون) و(صائد والفرض) و(الغنائم) ممن ماتت ضمائرهم، على أشلاء شرفهم وكرامتهم، من دون أن يمنع ذلك الحاكم في إلتماس رضى الشرفاء النزهاء الأخيار، فرض هؤلاء دليل على حسن عمله، وهي مشورة غير مباشرة قد تغني عما سواها".(د. عمر بن قينة، 2000، ص 19)

فعلاً ظاهرة الوصولية أصبحت اليوم في كل المؤسسات والمواقع، فكم من باع ضميره وشرفه من أجل المنصب والمسؤولية، إنهم عندنا يولدون وهم يحلمون بالكرسي والهيمنة والتسلط.

لقد بينت بوضوح ثورة الربيع العربي هذا الأمر، حيث ما يجري في سوريا من مذابح وتنكيل بالمواطنين البسطاء هو دليل على تقديس السلطة عند هؤلاء المسؤولين المرضي الذين رفضتهم الشعوب.

ونستشهد هنا برأي ابن المقَفَّع حول من يجب أن نأخذ برضاه: " ما حاجتك إلى رضى من رضاهُ الجور، وإلى موافقة من موافقته الضلالة والجهالة، فعليك بالتماس رضى الأخيار منهم وذوي العقول، فإنك متَّى تصب ذلك تضيع عنك مؤونة ما سواهُ".(آثار ابن المقَفَّع، تقديم وإشراف عمر أبو نصر، 1966، ص 283)

كما يتطلب هذا من الحاكم مستوى عاليًا من الحكمة ورجاحة العقل. " عود نفسك على من خالفك من ذوي النصيحة والتجرع لمرارة قولهم وعداهم، ولا تسلمن سبيل ذلك إلا لأهل العقل والسن والمروءة".(د. عمر بن قينة، 2000، ص 20)

كما أن عليه أن يتفرغ لأمهات القضايَا تاركًا ما دونهًا أهمية للمساعدين المخلصين الصادقين الأوفياء " لا تتركن مباشرة جميع أمرك، فيعود شأنك صغيرًا، ولا تلزم نفسك مباشرة الصغير فيصير ضائعًا".(د. عمر بن قينة، 2000، ص 20)

ومنه نفهم أن على الحاكم اختيار يعقل وتبصر مساعديه ومعاونيه، ومن الصفات المطلوبة عند هؤلاء المعاونين، الإخلاص والصدق، والأمانة والوفاء.

كما أنه من صفات الحاكم أن لا يكون لعبة بين أيدي معاونيه، يفعلون به ما يريدون. وهذا ما نحن نلاحظه في كل المستويات التي يوجد فيها سلطة. حيث المسؤول يتصرف في مكانة البواب والنائب والمستشار.. الخ، إنه بلاء كبير.

هذا لا يعني أننا ننقص من قيمة المعاونيين، بل العكس، لابد لكل واحد أن يعرف أين تبدأ وأين تنتهي صلاحياته ومسؤولياته.

هذا الرأي في (الأدب الكبير) يتردد بصيغ مختلفة في الأعمال الأخرى للمؤلف لكنه في جميع الحالات يقدم (الحاكم) في صورة (الخادم) للرعية، يرعي مصالحَها، ويرعى عواطفهَا، ولا يستغلهَا، لمصالحها الأولية على مصالحهِ، لرأيهَا الرجحان على رأيه، فيقول في (الأدب الصغير): " إن للسلطان المقسط حقًا لا يصلح لخاصة ولا عامة إلا بإرادته فذو اللب حقيقٍ أن يخلص لهم بالتضحية، ويبذل لهم الطاعة، ويكتم سرهم، ويزين سيرتهم، ويذب بلسانِه ويدهِ عنهم، ويتوخى مرضاتهم، ويكون من أمرهِ الموتَاة لهم، والإيثار لأهوائهم ورأيهم على هواه، ويقدر الأمور عَلىَ موافقتهم، إن كان ذلك له مخالفًا ".(آثار ابن المقَفَّع، تقديم وإشراف عمر أبو نصر، 1966، ص 331)

وحول خاصة الأمير أو المسؤول أو ما يسمى بالبطانة فإذا صلحت صلح المسؤول وإذا فسدت فسدَ المسؤول، حيث يقول في " رسالة الصحابة "، قد علمنَا علمَا لا يخالطهُ شك أن عامَّة قط لم تصلح من قبل أنفسها وإنَّما لم يأتهَا الصلاح إلاَّ من قبل إمامِهَا " فبالخاصة تكون المشورة والعون، وبالإمام يصلح أمر الناس، عمومًا، خصوصًا حين يكون قدوة حسنة.(د. عمر بن قينة، 2000، ص 21)

وهنا يأتي دور (البطانة) فما من شك أنها خاصة (الأمير)، ووساطته لدى الرعية، وجهه الخارجي، وسياسته في الناس، إن حكمةً وصدقًا وإخلاصًا وحزمًا وعزمًا، وإن جهلاً وخيانةً وكذبًا، وإهمالاً وتفريطًا.(آثار ابن المقَفَّع، تقديم وإشراف عمر أبو نصر، 1966، ص 281)

فحكم من حاكما اليوم وبعد إنهيار حكمه ومحاكمته قد صرحَ أنه راحَ ضحية لخاصته التي كانت تكذب عليه وتزين له صور العيش وتتفن في خداعه..

وحول هذه الخاصة أو المخلصين الذين يجب على الحاكم أن يحيط نفسه بهم نجد ابن المقَفَّع يقول: " غن ابتليت بالإمارةِ فتعوذ بالعلماء ".(آثار ابن المقَفَّع، تقديم وإشراف عمر أبو نصر، 1966، ص 281) نعم العلماء لا الجهلة، المتطفلين الذين همهم الوحيد هو الجاه والمصلحة.

وقد شد الموضوع " خاصة الحاكم " كثيرًا اهتمام ابن المقَفَّع، حيث نجدهُ قد تناول هذه المسألة في جلِّ أعماله، ففي " رسالة الصحابة " نجدهُ يقول: " من أولى أمر الوالي بالتشبتِ والتخيُّرِ أمر أصحابه الذين هم فناؤُهُ وزينة مجلسِهِ وألسنةِ رعيتهِ، والأعوان على رأيه ومواضع كرامته، والخاصة من عامته ".

كما أن نفس الموضوع قد تناوله العديد من العلماء والمفكرين قديمًا وحديثًا وهذا " توماس مور " المفكر الإنجليزي صاحب مؤلف " Utopie " قد تناول نفس المسألة حيث سمى هذه الحاشية الفاسدة التي تحيط بالملك بالجيوب الخاوية، الأمر الذي كلفه الإعدام من طرف الملك هنري الثامن، ملك بريطانيا العظمى.

وعليه نرى أن ابن المقَفَّع قد وفق في التفطن إلى هذه المسالة الحساسة، حتَّى يسد الحاكم كل المنافذ أمام الدخلاء والطامعين ويحيط نفسه برجال كلهم علم ونزاهة وكفاءة.

وتعليقًا على هذه الأقوال نرى بأن مشكلة التعسف في الآراء والأحكام والإدعاء بملك الحقيقة المطلقة ما زالت سائدة كظواهر إنحرافية مرضية مازالت سائدة إلى يومنا هذا، حيث الكل يفتي والكل يدعي بأنه صاحب الحق والصواب.

أما القضاة كما انتقدهم ابن المقَفَّع فهم في الحقيقة فئة تقع على رأسها مسؤوليات جسام وصلاحها يعني صلاح المجتمع، وفسادها يعني فساد المجتمع، ولهذا نجد أن ابن المقَفَّع قد خاض طويلاً في المسالة لمِا لهَا من أهمية.

كما أن مسألة القضاء والعدالة بشكل خاص هي من المسائل التي أتعبت كثيرًا المجتمعات العربية والإسلامية وذلك لطغيان النزوات والأحكام الشخصية وتغيب المساواة والعدالة.

وابن المقَفَّع يظهر من خلال هذا أنه قد عانى الكثير والكثير وقد كلفه هذا حياته في النهاية، كما أنه عايش هذه المآسي ورأى كيف يستبد القضاة بآرائهم ويضحون بالعدالة في سبيل الأغراض الضيقة.

خاتمة:

بعد هذا العرض لبعض الأفكار السياسية التي ناد بها ابن المقَفَّع في كتبه " رسالة في الصحابة " و " الأدب الكبير " و " الأدب الصغير "، يمكن القول بأن ابن المقَفَّع يبقى من أعظم المفكرين الذين أنجبتهم البشرية على حدِ سوي حيث لم يختص بصناعة أو حرفة معرفية واحدة بل مارس العديد من أصناف المعارف كما سبق الإشارة إليه.

ونحن نعتقد بأنه يعد من كبار مؤسسي كل من الفكر الاجتماعي والسياسي بالإضافة إلى نباغته في الحقل الأنتروبولوجي وذلك من خلال مؤلفه " آيين نامة " والذي تناول فيه عادات الفرس وآدابهم.

وتبقى جرأة هذا المفكر ووقوفه في وجه الظلم والإستبداد دروسًا لكل من يعشق العدل والمساواة، وليس خافيًا ما يشكلُ هذا الفكر العملي المنحاز إلى مصالح الجماهير من خطورة على السلطات الإستبدادية المتحكمة، السياسية وغير السياسية، فهو في تجلياته الثقافية والاجتماعية والسياسية يساعد كثيرًا على اكتساب الوعي بالذات، ويبعث الرغبة الملحة في إمتلاك الحرية والمعرفة، ويزيدُ من القدرة على مجابهة المشكلات، ومكابدة ظروف الواقع طوعًا واختيارًا، ومِمَا يزيدُ من الآثار الخطيرة التي يحدثهَا في المجتمع كونه صادرًا من أديب أولى بنفسه دورًا أساسيا – بالمعنى الاجتماعي الواسع للكلمة – فلم يجد حرجًا في أن يتعالى حتَّى يسمو على الحاكم نفسه فيكون لَهُ مرشدًا وعليه رقيبًا، ولا يتورَّعُ عن توجيه النقد والإتهام إليه إذا مَا رأى منه إنحرافًا عَمَا يراهُ حقثا وعدلاً".(عبد الله ابن المقَفَّع، ص 10)

إن أعظم الأخطار التي يخافهَا الحاكم هي أن يبتلى بأديب مثل ابن المقَفَّع، هذا المفكِّر الذي جهر بآراء جريئة هي في الحقيقة في أهداف جميع الشرائع الدينية، ومنهَا الدين الإسلامي الذي إتُهِمَ بالمروقِ عنه ومخالفته، فانتهى

إلى أن يكون في عدد المفكرين الذين يقضون تنكيلاً وقتلاً وتمثيلاً لا لشيء إلا لأنَّهم استجابوا لِمَا تدعو إليه هذه الشرائع ذاتِهَا بالإنسان والإنتصار لقضاياهُ الأساسية وحقوقه المشروعة ".(عبد الله ابن المقَفَّع، ص ص 10-11)

فهو شهيد قدم قربان كثمن للحرية والعدالة والمساواة بين بنو البشر دون أي تمييز، وحتَّى لا تذهب هذه الأفكار والآراء لهذا العالم المتميز وغيره من العلماء الذين أنجبتهم أعظم حضارة على وجه هذه البسيطة، نرى بأنه حان الوقت لإحداث مخابر ومراكز علمية لدراسة هذا المنتوج الفكري الثري والمتنوع

قائمة المراجع:

1-ابن المقفع، **الأدب الصغير والأدب الكبير**، تحقيق ودراسة د. إنعام الفوال، دار الكتاب العربي، ط 2، بيروت، 1999.

2-ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج 2، دار مارون ودار الثقافة، بيروت، بدون ت، ص 105.

3-ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج 10.

4-آثار ابن المقَفَّع، **سلسلة من تراثنا**، تقديم وإشراف عمر أبو نصر، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1966.

5-أحمد أمين، **ضحى الإسلام**، الجزء الأول، الطبعة العاشرة، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، دون تاريخ.

6-د. عمر بن قينة، **الرؤية الفكرية في الحاكم والرعية لدى " ابن المقَفَّع وابن العنابي والكواكبي "**، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، 2000.

7-الزركالي، **الأعلام**، دار الأفاق الجديدة، بيروت، دون ت.

8-عبد الله ابن المقفع، **كليلة ودمنة**، مهَدَ لَهَ وضبطَهُ وشرحه وناقشهُ وقابل نصوصه الدكتور حبيب يوسف مغنية، دار مكتبة الهلال، بيروت، 2001.

9-عبد الله ابن المقَفَّع، **آثار ابن المقَفَّع**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، بدون سنة.

10-عبد الله ابن المقَفَّع، **كليلة ودمنة**، شرح مصطفى لطفي المنفلوطي، مراجعة وتنقيح د. محمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت، 2005.

11-عبد الله ابن المقَفَّع، **كليلة ودمنة**، مهد له وضبطه وشرحه وناقشه وقابل نصوصه الدكتور حبيب يوسف مغنية.